المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

مجتمع بغـــداد من خلال حكاية

أبو القاسم البغـــدادي

بقلم
عبدالواحد ذنون طه
مدرس معهد اعداد المعلمين بالموصل

المؤلف والحكايـة :

في حكاية ابي القاسم ومؤلفها روايان ، الاول : ان الحكاية من تأليف رجل عرف بأبي المطهر محمد بن أحمد الازدي ، وهذا الراي يستند الى ما جاء في مقدمة الحكاية نفسها ، فقد قال مؤلفها بعد البسملة مباشرة : « قال الشيخ الاديب ابو المطهر محمد بن أحمد الازدي رحمة الله عليه ... »(١) وقد استند ناشر القصة (Adam Mez) على هذا ، وعلى ورود سنة (٣٦٠هـ)(٢) في متن الحكاية ، فأثبت في ملحوظاته باللغة الالمانية ، أن مؤلف الحكاية هو محمد بن أحمد الازدي ، وان عصر القصة هو ، القرن الرابع الهجري . وقد اعتمد كل من المفهرس يوسف اليان سركيس ، والدكتور زكي مبارك ، على ملحوظات الناشر في تعيين المؤلف وزمن القصة ، قال يوسف اليان ،(٣) عن المؤلف والحكاية مايأتي : « أبو المطهر الازدي محمد بن أحمد من أبناء القرن الرابع للهجرة (مؤلف) حكاية أبي القاسم البغدادي التميمي ــ ومعها ملحوظات باللغة الالمانية للمسيو آدام طبع هيدلبرج ١٩٠٢ ص ١٤٦ و ٦٩ » .

أما الدكتور زكي مبارك ،(٤) فقد قال عنه ما يأتي : « لم نستطع الوصول الى معرفة أخباره في كتب التراجم ، ولكن المسيو ميتس (Mez) هدانا في المقدمة التي صدر بها طبعته لهذه الحكاية الى ان الازدي كان يعيش في صميم القرن الرابع » ، ويضيف مؤيدا هذا الراي ، ومستندا على ماجاء في متن الحكاية ، أن الازدي نفسه كان شابا ماجنا سنة (٣٦٠ هـ/٩٧٠ م) ، حيث قام هو وجماعة من اصحابه بأحصاء عدد الجواري في بغداد ،(٥) وانه تحدث عن مجلس انس(٦) قضاه مع ابن الحجاج ،(٧) وابي محمد اليعقوبي ،(٨) وابو الحسن بن سكرة .(٩) وبما ان هؤلاء جميعا كانوا من اعيان القرن الرابع ، « فحكاية أبي القاسم وضعت بلا ريب في اواسط القرن الرابع » (١٠) .

---

(١) حكاية ابي القاسم البغدادي ، ص١ .

(٢) لقد تصحف هذا التاريخ في الحكاية الى (٣٠٦) ، فبدلا من ان يكتب الناسخ « سنة ستين وثلاثمائة » كتب « سنة ست وثلاثمائة » د . مصطفى جواد : « حكاية ابي القاسم البغدادي هل هي لابي حيان التوحيدي ؟ » مجلة الاستاذ ، مج/١٢ ، ٣٠٠ ، وانظر : الحكاية ، ص ٨٧ .

(٣) معجم المطبوعات العربية والمعربة : ٣٢٨/١ .

(٤) النثر الفني في القرن الرابع : ٣٢٨/١

(٥) الحكاية ، ص ٨٧ .

(٦) نفس المصدر ، ص٨٨ .

(٧) ابو عبدالله الحسين بن احمد بن الحجاج ، من شعراء القرن الرابع الهجري ، يتصف شعره بالمجون والخلاعة والسخف ، وان كان له في الجد ايضا اشياء حسنة ، لكنها قليلة ، تولى حسبة بغداد مدة من الزمن ، توفي سنة (٣٩١هـ/١٠٠٠-١٠٠١م) . الثعالبي ، يتيمة الدهر : ٢١/٣ فما بعدها ، ابن خلكان : وفيات الاعيان : ٤٢٦/١ ، ياقوت معجم الادباء : ٦/٤ فما بعدها .

(٨) جاء في انساب السمعاني ، الورقة ٩٠١ (وجه) ما يأتي : « واليعقوبي شاعر محدث روى عن ميمون بن هارون بن مخلد الكاتب عن الحسين الضحاك خبرا لابي نواس » وبما ان وفاة ميمون كانت سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) ، فعلى هذا يكون اليعقوبي من رجال القرنين الثالث والرابع . انظر : معجم الادباء : ٣٠/٤ ، الزركلي ، الاعلام : ٢٥٨/٢ ، ٣٠١/٨ .

(٩) ابو الحسن محمد بن عبدالله بن محمد المعروف بابن سكرة، الهاشمي ، البغدادي ، اشتهر بالشعر الماجن الخليع ، قال عنه الثعالبي : « هو شاعر متسع الباع ، في انواع الابداع ، فائق في قول الظرف والملح ... وكان يقال ببغداد ان زمانا جاء بابن سكرة وابن الحجاج لسخي جدا ... » توفي سنة (٣٨٥هـ/٩٩٥م) . يتيمة الدهر : ٢/٣ ، وفيات الاعيان : ٤٠/٤-٤٣ .

(١٠) مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع : ٣٢٨/١ .

والراي الثاني في حكاية ابي القاسم ومؤلفها يعود الى الدكتور مصطفى جواد ، فقد نشر مقالته الموسومة : « حكاية ابي القاسم البغدادي التميمي هل هي لأبي حيان التوحيدي ؟»(١١) وحاول فيها اثبات نسبة هذه الحكاية الى ابي حيان التوحيدي (توفي في اواخر القرن الرابع على وجه التقريب) ، وقدّم أدلة مقنعة ، ومقابلات عديدة شملت نصوصا واخبارا معينة ، جاءت مشتركة بين الحكاية وبين كتاب (الامتاع والمؤانسة) لأبي حيان التوحيدي ، مما يثبت ان مؤلفهما واحد . ولهذا فنحن نميل الى الاخذ بهذا الراي ، ونعتقد في الوقت نفسه ، أن الاسباب التي دفعت ابا حيان التوحيدي الى نسبة هذه الحكاية الى مؤلف وهمي ، لاتعود فقط الى تصرفه المخالف للامانة ، المباين لصدق الحكاية، الامر الذي عيب به ابو حيان في اكثر كتبه واخباره، وحمل النقاد على اتهامه بالوضع والتزوير والشك فيما يتحدث به(١٢) . ولكن الدافع الذي جعله يخفي اسمه وينسب الحكاية الى شخصية وهمية لا وجود لها يعود الى محتوى الحكاية نفسها ، وما جاء فيها من الفاظ واشعار ، تجعل من الصعب على الانسان ، مهما بلغ من الخلاعة والمجون ، ان يضع اسمه عليها ، وان تحسب بالتالي فى قائمة مؤلفاته .

ولا يصعب على قارىء « حكاية ابي القاسم البغدادي » ان يرى الوضع والاختلاق الواضح عليها ، يقول مؤلفها : « واذا قدمت هذه الجملة فأقول هذه حكاية مقدرة على احوال يوم واحد من اوله الى آخره أو ليلة كذلك ...»(١٣) ، فهو يعترف انها مقدرة لاحقيقة ، فمن المحال ان تجري كل احداث الحكاية كما ذكر مؤلفها في يوم واحد او في يوم وليلة .

اما بطل الحكاية ابو القاسم احمد بن علي التميمي البغدادي (١٤) ، فهو شخصية خيالية لا وجود لها ايضا ، نعته المؤلف بكل المتناقضات التي لا يمكن ان تجتمع في انسان واحد مهما كان غريب الاطوار ، فهو شيخ « بلحية بيضاء تلمع فى حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف وله عينان كأنه ينظر بهما من زجاج أخضر تبصان كأنهما تدوران على زئبق عيارا نعارا زعاقا طفيليا بابليا اديبا عجيبا رصافا قصافا مداحا قداحا ظريفا سخيفا نبيها سفيها قريبا بعيدا حديدا مصادقا مماذقا مسامرا مقامرا ... همازا غمازا همزة لمزة سبابا عيابا معربدا منددا صديقا زنديقا ناسكا فاتكا غرة عرة عبرة ترهة مفروكا مدلوكا ... اشر من طين السماكين وانتن من ريح الدباغين ... غرة الزمان وعديل الشيطان ومجمع المحاسن والمقابح متجاوزا الغاية والحد متكاملا في الهزل والجد موفورا من الاخلاق والنفاق متخلقا منها بأخلاق اهل العراق ...»(١٥) .

وتدور احداث هذه الحكاية الخيالية ، في احد مجالس مدينة اصفهان ، حيث يدخل ابو القاسم البغدادي دار بعض الاكابر ، فيداري اهل المجلس وينافقهم ، ويظهر التقوى والخشوع والتأدب والصلاح حتى اذا رآهم على استعداد للهزل انقلب الى شخص خليع متمرس في المجون ، فيشبعهم نقدا وشتما ، ويهجوهم ، ويهجو مدينتهم اصفهان شعرا ونثرا . (١٦) وفى اثناء ذلك ، يقارب بين بغداد واصفهان ، فيعدد الضواحي والمحلات ، والاسواق، والانهار ، والجوامع ، ويذكر حرف اهل بغداد ، وملابس سكانها ، وجواريهم ، واكلاتهم ، ولهوهم، وطرق معيشتهم ، ثم يعير الحاضرين بقلة خيراتهم، ويتباهى بكثرة خيرات العراق . ولكنه بعد ان يحضروا له الوان الطعام والشراب ، يتحول اليهم ، فيمدحهم ويمدح اصفهان ، ويأخذ بذم بغداد واهاليها ، واسواقها ، ومحلاتها . وعندما يشمل ينقلب على القوم ، فيهجوهم ثانية الى ان ينام من شدة السكر ، ويصحو في الصباح ، ويظهر الوقار ، كأنه لم يكن ذاك السكير المنافق الكاذب بالامس .

تحليل ونقد لاسلوب المؤلف والحكاية :

يقول مؤلف الحكاية في مقدمة كلامه عنها مبينا الغاية من تأليفه اياها : « ان هذه حكاية عن رجل بغدادي كنت اعاشره برهة من الدهر فينفق منه الفاظ مستحسنة ومستخشنة وعبارات اهل بلده مستفصحة ومستفضحة فاثبتها خاطري لتكون كالتذكرة في معرفة اخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم وكالانموذج المأخوذ عن عاداتهم .. » (١٧) والبغدادي المقصود في النص هو ابو القاسم ، بطل الحكاية . ان الاخلاق التي مثلها هذا البطل ، لايمكن ان تكون الا اخلاق فئة ، أو شريحة معينة

---

(١١) مجلة الاستاذ ، مج/١٢ ، ص ٣٠٠-٣١٠ .
(١٢) نفس المرجع ، ص٣١٠ .
(١٣) الحكاية ، ص٢ .
(١٤) وجاء اسمه في نهاية الحكاية ، ص١٤٥ على انه : (ابو القاسم علي بن محمد التميمي البغدادي) .
(١٥) الحكاية ، ص٢ ، ١٤٦ .
(١٦) الحكاية ، ص ٢١-٢٢ .
(١٧) نفس المصدر ، ص ١ .

من ذلك المجتمع الكبير ، ومن عدم الانصاف أن تؤخذ أخلاقه وعاداته ، التي وردت في الحكاية ، وتلصق بجميع البغداديين «على تباين طبقاتهم». فالذي ورد على لسان ابي القاسم ، لايمكن ان يدل الا على أعلى درجة من درجات الانحطاط الخلقي ، والتحلل من كل الفضائل ، فلم يكن في كلامه اية الفاظ مستحسنة مستفصحة ، بل معظم ما جاء على لسانه كان فحشا في القول ، وحتى نصائحه فقد كانت فضائح كقوله في مجلس اصفهان : « .. من كان منكم له مال فلا يتوقع به حادثا يسرع اليه ولا يخلفه لوارث لايترحم عليه ومن كان منكم فقيرا فليستقرض ويستدن ولايبال بكثرة الغرماء والمطالبين افتنوا في أكل الطيبات وشرب المسكرات وسماع المطربات المحسنات و .. تمتعوا بالجواري والغلمان تمتعوا بالصبايا والولدان لاتتخذوا من الاخوان الا من لج في خلع عذاره ووصل بالمجون ليله بنهاره ليست له صاحبة تؤويه ولازوجه تحظر عليه وتؤذيه قد ارسل .. فذاك العاقل الاريب والفتى النجيب استخلصوه لانفسكم صديقا واتخذوه أخا وشقيقا .. (١٨) ويدعوهم الى اللهو شعرا فيقول :

واشرب الراح التي في دنها
شاهدت عادا ولاقت تبعا
والغنا الطيب فاسمع منه ما
يحظر التحصيل الاتسمعا
وتمتع بالصبايا لاتكن
من اناس يحظرون المتعا

* * *

اجر في اللهو الى الحد الذي
ترجع السبق عنه ظلعا(١٩)

ان ماذكرناه آنفا يمثل الحد الذي يسمح به الادب فى ذكر الالفاظ التي وردت في الحكاية ، فالانحطاط الخلقي يظهر في كل صفحة من صفحاتها، وقد لانبالغ اذا قلنا في كل سطر من سطورها في بعض الاحيان . فمن الواضح اذن ، أن المؤلف لم يكن يصف كل مظاهر الحياة فى عهده ، ولا كل اخلاق البغداديين ، لان سياق الحكاية صريح في انه قصد الى جانب العبث والمجون ، يقول زكي مبارك (٢٠) ، ان المؤلف « اراد ان يجعل تلك القصة مرجعا لاكثر المعاني الهزلية فلم يترك بابا من ابواب الدعابة الاطرقه ولم يدع معنى من معاني الخلاعة الا الم به واحسبه حشر في كتابه اقذر ماروى من الشعر الماجن الخليع » ، وعندما يقارن بين رسالة للخوارزمي في وصف (الثقيل) وبين ماكتبه المؤلف يذكر مبارك (٢١) ، ان الخوارزمي لا يمكن ان يصل الى ما وصل اليه مؤلف حكاية أبي القاسم في الافحاش والاقذاع . ولكنه في الوقت نفسه يعتبر هذه « الاهاجي البشعة من مظاهر الحضارة في بغداد » (٢٢) ، ويدلل على ذلك بقوله : « ان الحضارات تقتضي فنونا من المناقب والمثالب لاتستطيعها البداوات ، وعيوب أصحاب الحرف والصناعات ورذائل المترفين ومساوىء الموسرين لاتعرف الا فى الحواضر المزهرة » .(٢٣) ويبدو لي ان في هذا التفسير ابتعادا عن الواقع الى حد كبير، فهل افتقدنا كل المظاهر التي تدل على حضارة بغداد ، حتى نلجأ الى « أهالي أبي المطهر » لترشدنا الى « قوة الحضارة في بغداد » ؟ ، ثم ان الدكتور مبارك نفسه ، وصف الكتاب كله بالسخف ، (٢٤) فهل يعقل ان نعمد الى الاهاجي ، وهي اسخف ما فى الكتاب لندلل بها على حضارة بغداد العريقة وقوتها ؟ .

ولا اقصد من كلامي هذا ان أجرد مؤلف الحكاية من كل المحاسن ، فمن خلال حكايته يمكننا ان نعثر على بعض الصور الفنية الرائعة ، من ذلك مثلا ، وصفه للمنافق الذي يستغرق اكثر من صفحتين(٢٥) ، ووصفه للثقيل بنحو من اربع صفحات . (٢٦) ومن طريف ما يصوره ، وصفه للجمال اثناء حديثه عن جمال النساء (٢٧) والغلمان (٢٨) ، وكذلك وصفه للخيل والجياد(٢٩) ومن تعابيره المستظرفة ما قاله عن الخمر انها : « اصفى من عين الديك ومن دمعة المحب المهجور وارق من دين أبي نواس وازكى من المسك . .»(٣٠)

---

(١٨) نفس المصدر ، ص١٨-١٩ .
(١٩) نفس المصدر ، ص٢٠ .
(٢٠) النثر الفني في القرن الرابع : ١/٣٥٠ .
(٢١) نفس المرجع ، ص٣٤٦ .
(٢٢) نفس المرجع والمكان .
(٢٣) نفس المرجع والمكان .
(٢٤) نفس المرجع ، ص٣٥١ .
(٢٥) الحكاية ، ص١١٢-١١٥ .
(٢٦) نفس المصدر ، ص١١٧-١٢٠ ، ومن جملة ما يقوله عنه : « يا اول ليلة الغريب اذا بعد عن الحبيب ياطلعة الرقيب يايوم الاربعاء في آخر صفر يالقاء الكابوس في وقت السحر ياخرابا عند سكان العراق ياخراجا بلا غلة ياسفرا مقرونا بعلة ... » .
(٢٧) الحكاية ، ص٧٦-٧٧ .
(٢٨) نفس المصدر ، ص٦٥-٦٦ .
(٢٩) نفس المصدر ، ص٢٦-٣٢ .
(٣٠) نفس المصدر ، ص١٠٩ .

وللمؤلف نظرات فلسفية في المجتمع ، منها تعليله لغلبة المجون على الناس ، فقد جعل بطل روايته يصف أحد سكان بغداد فيذكر انه اذا سمع الغناء تمرغ في التراب وهاج وماج ، وازبد وركل برجليه ولطم وجهه الف لطمة ، فيساله الحاضرون: « يا ابا القاسم كل هذا لسماع غناء ؟ فيقول هذه صورة اذا استولت على اهل مجلس وجدت لها عدوى لاتملك ، وغاية لاتدرك ، لانه قلما يخلو الانسان من صبوة او صبابة او حسرة على فائت ، اوفكر متمنى ، او خوف من قطيعة ، او رجاء لمنتظر، اوحزن على حال ، فالناس كانهم جديلة واحدة(٣١) فى هذه الحال » .(٣٢) ويستمر في شرح طبيعة النفس البشرية وخصائص الانسان ، فيذكر في مكان آخر : « زعمت الاوائل ان الانسان انما قيل له (العالم الصغير) سليل العالم الكبير لانه يصور بيده كل صورة ويحكي بفمه كل صوت ولانه ياكل النبات كما تاكل البهائم ويأكل اللحم كما تأكل السباع ويأكل الحب كما تأكل الطيور ولان فيه اشكالا من جميع اجناس الحيوان (٣٣) . » وبعد روايته لانتحار شخصية من شخصيات المجتمع ، يقول عن الانسان وتصرفه ما نصه : « فليس الى الإنسان من امره شيء وما هو ايضا اليه فهو مملوك عليه متصرف فيما يتصرف فيه وهو يظن انه يأتي من قبله ولعمري من غلط غلط ومن غولط تغالط والكلام في هذا حماش (٣٤) والاغراق فيه توسوس والافراج عنه اجلب للانس وافضى لسلامة القلب من الوساوس والهواجس .. » (٣٥)

وبعد فان هذه الحكاية تزخر بالحقائق الاجتماعية والاقتصادية ، التي يمكن ان نتلقطها من بين الفاظها الخليعة ، ولعل اول حقيقة اجتماعية كبيرة يمكن ان نستنتجها من الحكاية ، هي وجود طبقة من الناس ذات ذوق اجتماعي يلائم هذه القصة ، وما ورد فيها من تعبيرات ، بحيث وجد مؤلفها تشجيعا وقراءيتعاطفون مع آرائه واسلوبه. ففي تلك العهود وما بعدها الفت كثير من الادبيات لتسلية هذا القطاع من المجتمع ، ولانستغرب هذا في مجتمع كثر فيه عدد الجواري والغلمان ، وطفت عليه عناصر اجنبية مختلفة ، وشاعت فيه الخلاعة والمجون ، وراجت فيه عادات قبيحة نجدها مبثوثة في صفحات هذه الحكاية .

وليس من همنا في هذه الدراسة ان نتوسع في ذكر اسباب انتشار المجون والخلاعة واللهو والغناء ، في ذلكم العصر ، وللقارىء ان يرجع في ذلك الى رسالة ، عبداللطيف عبدالرحمن الراوي ،(٣٦) حيث تناول الموضوع بشيء من التفصيل ، فذكر اسبابا لانتشار اللهو والمجون منها : انتهاء الفتوح ، وكثرة اوقات الناس ، ووفرة وسائل اللهو من مال ، وغلمان ، وجوار ، وخدم ، وقصور عامرة ، وكذلك اثر الشعوب الفارسية والبيزنطية التي اختلط بها العرب .(٣٧) ويمكن ان نضيف سببا اخر له اهمية كبيرة فى هذا المجال وهو حدة التمايز الاجتماعي ، وسوء احوال الطبقة الفقيرة ، وحرمانها من الثروة التي تكدست بأيدي طبقة اجتماعية صغيرة . وقد ادت هذه الإحوال ببعض الناس الى العيش في الخيال ، والالتجاء الى هذا النوع من الادب الخليع الماجن ، ليقتلوا احزانهم، وينسوا همومهم وحاضرهم المؤلم . كما دفعت البعض الى التخلص من حياته بالانتحار غرقا ، لاسباب لاتتعدى ماذكرناه آنفا ، منها خلو اليد ، وسوء الحال ، والمرض ، وعشق غلام (٣٨) ، وما يعقب ذلك من الحيرة التي يغرب معها العقل ويخذل عندها الراي

تبدو بغداد عاصمة الخلافة العباسية من خلال الحكاية ، وكأنها الامل والغاية القصوى ، فنازلها لايرى الإجمالا وكمالا ، ولايسمع من الحانها الا سحرا حلالا ،(٣٩) « وحصباؤها جوهر ، ونسيمها عنبر ، وترابها مسك اذفر ..» (٤٠) ، قال ابو القاسم بطل الحكاية :

من اي اقطارها اتيت رأيـ
ـت الحسن حيران في جوانبها(٤١)

ولكنها على الرغم من هذا الوصف ، كانت « جنة الموسر ، وعذاب المعسر » (٤٢) ، فمجال اللهو والتمتع كان واسعا امام من يمتلك الاموال الطائلة ، والجواري الحسان ، والقصور الغناء .

---

(٣١) اي على حال واحدة وطريقة واحدة . لسان العرب / مادة : (جدل) .
(٣٢) الحكاية ، ص٧٨-٧٩ .
(٣٣) نفس المصدر ، ص٢ .
(٣٤) اي مثير للغضب ، يقال احمشت الرجل اذا اغضبته ، وكذلك التحميش ، لسان العرب / مادة : (حمش) .
(٣٥) الحكاية ، ص٨٣ .
(٣٦) « المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة » ص ١٤٧-١٥١ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ .
(٣٧) نفس المرجع ، ص١٤٧ .
(٣٨) الحكاية ، ص٨٣ .
(٣٩) نفس المصدر ، ص٢٤ .
(٤٠) نفس المصدر ، ص٢١ .
(٤١) نفس المصدر ، ص٢٤ .
(٤٢) نفس المصدر ، ص٧٣ .

وليس معنى هذا ان غيرهم من الطبقات كانوا محرومين من المتعة ، فقد كانت بغداد وما يحيط بها من بساتين وقرى عامرة ، محلا دائما للنزهة الخلوية ، يؤمها عشاق المتعة وطلابها ، وكانت السفن تنقل من يرغب بالتنزه فى دجلة الى واسط ، وترجع اخر النهار ، وقد يحلو للبعض عدم الرجوع وقضاء الليل هناك (٤٣) ومن اماكن اللهو في بغداد ، شط الصراة (٤٤) ومطالع الفرات ، والزبيدية (٤٥) ، ومسناة دار المعزية (٤٦) وغيرها .

ومن القرى التي اشتهرت باللهو والمواخير ، بصرى(٤٧) ، واوانا(٤٨) ، والقفص(٤٩) ، والبردان(٥٠) ، ولقد كانت منطقة قطربل (٥١) مثلا مأوى لامثال ابي القاسم يقصدونها ليشربوا بها الخمر التي تقدمها بنات النصارى المتزينات ، من سكان المنطقة ، فقد كانت المواخير والحانات تدار على الاغلب من قبل النصارى والروم ، وتقوم بناتهم على خدمة الرواد ، ويبدو ان اصحاب هذه المواخير كانوا يطلبون أسعارا عالية لخمورهم كما قال ابو القاسم :

وسلام علـى مواخير بصرى
واوانا والقفص والبردان
ليت شعري مذ غبت عنها على كم
قرر البائعون سعر الدنان
بين خمر تباع في دار روم
كل يوم بأوفر الاثمان (٥٢)

ويظهر ان التقدم الزراعي في العراق ، كان قد بلغ أوجه في ذلك العصر ، بحيث اصبح وادي مدينة اصفهان ، الذي يفخر به اهله ، لاشيء امام مزارع وقرى العراق ، ويتجلى لنا هذا من نظرة ابي القاسم التهكمية اليه والى اهله فقد قال لهم: « لو ان واديكم هذا الذي تفخرون به بالعراق لما ارتضوه لقريتين ولاسقوا منه مزرعتين »(٥٣) .

ولم تكن الزراعة وحدها هي المتقدمة في البلاد ، فالحقائق الاقتصادية توضح لنا بجلاء انتشار التجارة على نطاق واسع بين العراق ومختلف بقاع العالم المعروف آنذاك ، حيث كانت تنقل اليه المواد المختلفة ، فيتنافس على شرائها أثرياء بغداد، مثل السجاد المغربي ، والمطارح الارمنية ، والقطف الرومية ، والمقاعد التسترية (٥٤) ، والمخاد الذهبية الدبيقية (٥٥) ، وحصر سامان وعبادان ، الدقيقة النسج والتي تطوى بالعرض ، كما تطوى الثياب (٥٦) . يضاف الى ذلك ، انواع العطور المختلفة التي تأتي من مناطق بعيدة ، فاذا القينا نظرة على تعدد هذه العطور وكثرة أنواعها ، تبين لنا بوضوح حقائق اجتماعية جلية تدل على ترف المجتمع او بتعبير ادق ، ترف طبقة خاصة من هذا المجتمع ، تستعمل مثل هذه الكماليات ، وتبذل بسخاء في سبيل الحصول عليها . وفي الحكاية ذكر لما يزيد على سبعين نوعا من أنواع العطور ، منها :

(٤٣) نفس المصدر ، ص٨٩-٩٠ .
(٤٤) الصراة : نهر في منطقة بغداد الغربية يصب في دجلة، ثم اصبح يسمى بنهر (الصراة العظمى) لتمييزه عن نهر اخر يتفرع منه كان يعرف باسم (الصراة الصغرى) ، وكان هذا يسقى قسما من البساتين الواقعة على الجانب الايسر من الصراة العظمى ، ثم يعود فيصب في النهر الذي تفرع منه : انظر : د . مصطفى جواد و د . احمد سوسة ، دليل خارطة بغداد المفصل ، ص٦ .
(٤٥) الزبيدية : منطقة كانت تقع الى الشمال من بغداد ، وهي بالاصل قطيعة كانت لجعفر بن المنصور ، ثم انتقلت فيما بعد الى زبيدة زوج الرشيد ، فسميت الزبيدية ، الرجع السابق ، ص٧٨، ١٢٨ .
(٤٦) انشاها معز الدولة ، على حد الدار المعزية من جهة دجلة ، عرضها مئة اجرة ، او سبعين على قول التنوخي ، المرجع السابق ، ص ١٣٨-١٣٩ .
(٤٧) بصرى : من قرى بغداد قرب عكبرا ، معجم البلدان : ٦٥٤/١ .
(٤٨) اوانا : بلدة كثيرة البساتين والشجر ، من نواحي دجيل بغداد ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ (٣٠ ميلا) من جهة تكريت ، معجم البلدان ، ٣٩٥/١ .
(٤٩) القفص : قرية مشهورة بين بغداد وعكبرا ، كانت من مواطن اللهو ومعاهد التنزه ومجالس الفرح ، تنسب اليها الخمور الجيدة ، والحانات الكثيرة ، معجم البلدان : ١٥٠/٤ .
(٥٠) البردان : من قرى بغداد على سبعة فراسخ منها (٢١ميلا) وهي من نواحي دجيل ، معجم البلدان : ٥٥٣/١ .
(٥١) قطربل : اسم قرية قريبة من بغداد ، ينسب اليها الخمر، كانت متنزها وحانة للخمارين ، وقيل اسم طسوج من طساسيج بغداد اي (كورة) يقع الى الشرق منها ، معجم البلدان : ٢٧١/٤ (طبعة بيروت) .
(٥٢) الحكاية ، ص٤٨ .
(٥٣) نفس المصدر ، ص٢٤ .
(٥٤) نسبة الى مدينة (تستر) بخوزستان ، معجم البلدان : ٢٩/٢ (طبعة بيروت) .
(٥٥) نسبة الى قرية في مصر اسمها (دبيق) ، المصباح المنير : ٢٩٠/١ ، ويقال ان الاقمشة والثياب التي تسمى بهذا الاسم تنسب ايضا الى قرية ببغداد تقع على نهر عيسى في الجانب الغربي ، ولا نستطيع التفريق بين المنسوجات الدبيقية البغدادية ، والدبيقية المصرية ، لانها ترد منسوبة الى (دبيق) دون تخصيص . انظر : د . ناجي معروف ، « الثياب البغدادية في العصور العباسية » . مجلة الاقلام، جـ٥ ، السنة الخامسة ، ص٦٠ .
(٥٦) الحكاية ، ص ٣٦ .

السكرية ، والمسك الصيني ، والكافور ، والمثلثة البرمكية ، والصفراء ، التي كانت لاتؤثر في الثياب، ومنها أيضا « ماء الورد الجوري قطاف ساعته حديث عرق يغوص في مسام الشعر فتبقي رائحته اسبوعا » (٥٧) .

الاطعمة والماكولات البغدادية :

كانت الموائد الخاصة ، عامرة بانواع الاطعمة، فمن اكلاتهم المترفة التي ذكرت في الحكاية نجد « كبود الدجاج المسمن وصدور البط بماء التفاح وماء حب الرمان والتوت الشامي » (٥٨) والكبود المفروكة بالبيض الطري المعمول بالكزبرة الحديثة والزعفران ، (٥٩) ولحوم الحملان والجداء السمان المطيبة بالدارصين وبماء الزبيب المدقوق وبماء حب الرمان . (٦٠) ومن الماكل الاخرى ، الرز باللبن ، المطبوخ مع مواد اخرى ، والمرصع بالحمص ومن فوقه السكر الدقيق . وكان الكباب من انواع الطعام المعروفة ، وبخاصة الكباب الرشيدي ، ولعله سمي بهذا الاسم نسبة الى الخليفة الرشيد. اما المشويات فقد كونت جانبا هاما من الموائد الفاخرة ، وقد اشتهر شواء باب الكرخ بجودته في بغداد . (٦١) ومن الوان الشواء المعروفة : الدجاج المسمن الهندي ، والبط الكسكري(٦٢) ، والحملان التركمانية الاصل المدورة التي لايعرف طولها من عرضها نظرا لسمنها ، فكانت هذه الحملان الرضع تشوى على النار ، ويوضع في أفواهها ضروع امهاتها .

كل دجاجا وفراخا وجدا
واشو حملانا صغارا رضعا

ولتستمع الى ابي القاسم يصف لنا بعض الوان الطعام من خلال وصفه لاحد الفضوليين المشهورين بالاكل :

فأنزل الويل بالقلايا
وبالجدا الرضع السمان

(٥٧) نفس المصدر ، ص٣٧ .
(٥٨) نفس المصدر ، ص٣٩ .
(٥٩) نفس المصدر والمكان .
(٦٠) نفس المصدر ، ص ٤٠ .
(٦١) نفس المصدر ، ص ٩٢ .
(٦٢) نسبة الى مدينة (كسكر) القريبة من واسط ، وكانت تشتهر بالفراريج ، وقيل ان معنى (كسكر) ، هو (بلد الشعير) او (عامل الزرع) . البكري ، معجم ما استعجم: ١١٢٨/٤ ، معجم البلدان : ٢٧٤/٤ .

ولايلذ الرقاق (٦٣) الا
باللحم والشحم في مكان
ولايلذ الخبيص (٦٤) الا
فالوذجيا (٦٥) بزعفران
حتى تراه بغير حنا
مختضب الكف والبنان (٦٦)

ومن ماكل بغداد المشهورة ايضا ، العصيدة (٦٧) ، وكانت على انواع ، منها العصيدة المنصورية ، والعصيدة البرمكية (٦٨) وكان الثريد والهريسة من الانواع المعروفة الاخرى ، اما السكباج(٦٩) ، فقد كان من الذ الماكولات التي تقدم في الصيف والشتاء ، وكذلك القطايف المقلوة. ومن اهم انواع المشهيات المعروفة : الخيار المنقوع بالخل ، والباذنجان المخلل ، المعمول بماء حب الرمان «يصرع بحموضته الطير من جو السماء ، ويقلع عن المعدة الصفراء »(٧٠) ويظهر البيت الاتي ، بعض الماكل غير المرغوبة ، مثل الخس ، والهندبا(٧١) .

يبطش بالعتق السمان ولا
يعرض للهندبا ولا الخس(٧٢)

واشتهرت انواع عديدة من الجبن في بغداد، مثل الجبن الرومي ، والجبن الدينوري ، ويبدو ان النوع الاخير ، كان يعتبر من الانواع الرديئة (٧٣)

(٦٣) الخبز الرقيق ، ومن انواع الخبز ايضا ، هناك الخبز السميد ، انظر : الحكاية ، ص ٩٢ .
(٦٤) الخبيص : نوع من الحلوى ، وكان على انواع مثل خبيص اللوز ، والخبيصة اليابسة ، والاهوازية ، ويقول عنه الفيومي : انه نوع من الطعام ، المصباح المنير : ٢٥١/١ .
(٦٥) الفالوذج : من الحلويات المشهورة المعروفة لدى اهل بغداد ، وقد اشتهر الفالوذج المصري بجودته ، انظر الحكاية ، ص ٩٢ ، الوراق ، « الطبيخ واصلاح الاغذية والماكولات » ، مخطوط (الورقة ١٣ أ) عن : بدري محمد فهد ، العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ، ص١٣١.
(٦٦) الحكاية ، ص١٠ .
(٦٧) العصيدة : دقيق يلت بالسمن ويطبخ ، والعاصد هو الذي يعصدها اي يديرها ويقلبها ، لسان العرب ـ مادة : (عصد) .
(٦٨) الحكاية ، ص ٤١ .
(٦٩) السكباج : يتكون بصورة رئيسة من اللحم المطبوخ مع الجزر او الباذنجان ، وهو طعام معروف ، المصباح المنير : ٤٢٩/١ .
(٧٠) الحكاية ، ص٣٨ .
(٧١) الهندبا : نوع من النبات قريب الشبه بالخس ، عريض الاوراق في طعمه مرارة ، ابن البيطار ، « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » : ١٩٨/٣ .
(٧٢) الحكاية ، ص١٠ . والظاهر ان البيت من شعر العامة ، وكذلك كثير مما ورد في هذه الحكاية .
(٧٣) نفس المصدر ، ص١٢٢ .

وهناك ايضا الزيتون المدخن المخلوط بالفلوز المقشور والصمتر ، وقد اشتهر ببيع الجبن والزيتون ، بقال في الكرخ يدعي : (كيكي) .(٧٤)

ومن اهم انواع الحلويات التي اشتهرت في بغداد ، الخبيص ، والفالوذج ، وقد اسلفنا ذكرهما ، وكذلك الزلابية ، وبخاصة الزلابية القاهرية ، والزلابية المحشوة بدهن الفستق(٧٥) . ومن اهم انواع الفواكه : الموز ، والشاهبلوط ، والفستق الرطب ، وقصب السكر ، والبطيخ المتعدد الانواع ، والسفرجل ، والرمان ، والمشمش والكمثرى الشامي(٧٦) اضافة الى الجوز المقشر الابيض(٧٧) ، والفستق المقشور(٧٨) ، والزبيب الطائفي(٧٩) ، وقصب السكر المقطع المغسول بماء الورد (٨٠) .

وقد عرف البغداديون اصنافا عديدة من الخمور ، مثل الخمرة العراقية ، والسورية ، والبابلية ، والصريفينية(٨١) . واشتهر ببيع الشراب الصريفيني في ذلك العصر رجل يدعى (ابن سيرين) (٨٢). ومن انواع الشراب الاخرى : الشقيق ، والعقيق ، والحريق ، والعندم ، والياقوت ، والعقيان ، والنور ، والنار ، والورد الجني ، والجلنار ، واللهب الثاقب ، والذهب الذائب(٨٣) .

ان ما ذكرناه من اصناف الاطعمة والحلويات والفواكه والخمور وغيرها ، لا يعني بالضرورة ، انها كانت مفروفة ومتوفرة لدى جميع سكان بغداد ، بل انها قد تكون شائعة عند الاثرياء وطبقة الوزراء والاعيان وغيرهم ممن يسمح لهم دخلهم العالي ، باقامة المادب الفخمة التي تتصدرها مثل هذه الاطعمة . وقد كان لافراد هذه الطبقات الغنية ، طباخين مهرة ، لهم المام وحذق بصنعة الطبخ ، ولنقرأ هذا النص الذي يصف طباخا حاذقا يدعى (نارنج) فهو يمثل نموذجا لطباخي الخاصة في ذلك العصر : كان « ... عنوان النعم وترجمان المروءة وطبيب الشهوة احذق من رئى من اهل صناعة اطهر من الماء في نظافته ارهفهم سكينا واعدلهم تقطيعا واذكاهم نارا ... كان لا يجمع بين لونين ولا يوالي بين طعمين يخالف بين طعام الغداء والعشاء ويباعد بين الوان الصيف والشتاء يكتفي باللحظة ويفهم بالاشارة ويسبق الى الازارة كانه مطلع على الضمير من الزائر والمزور كان والله يطبخ ما يفيق شهوة النعسان والثكلان والمخمور والمغموم وكان اذا فرغ من الالوان فيقال له يا نارنج الى اي شيء تحتاج فيقول الى قوم جياع ...»(٨٤) .

بعد الانتهاء من الاكل يأتي خادم بطست وابريق ، فيغسل القوم ايديهم ، وكانوا يستعملون في ذلك الاشنان(٨٥) ، الذي يضيفون اليه بعض المواد المطيبة أو غير المطيبة ، كالارز المطحون ، والطين الخراساني ، والمسك ، والكافور ، فيصبح هذا الاشنان « سلطانيا ملوكيا يرغى كما يرغي الصابون ، ويزيد كما يزيد السدر »(٨٦) فينظف الايدي مما علق بها من الطعام . وبعد الاكل ينظفون اسنانهم ويخللونها بواسطة السواك ، ويستعملون الخلال السلطاني أو الخلال المأموني المطيب(٨٧) .

وبغض النظر ، عن أن فئة معينة فقط هي التي كانت تتمتع بهذه الحياة الرغيدة ، وتستعمل هذه الانواع من المآكل ، وتلك الطرق الاجتماعية أثناء المادب ، فان هذه الصورة التي حاولنا اظهارها يمكن أن تعطينا فكرة عامة عن مدى تقدم وتطور المجتمع البغدادي في القرن الرابع الهجري ، ومدى ترف الطبقة الخاصة في هذا المجتمع ، واهتمامها بمظاهر التقدم والحضارة .

الملابس :

تنوعت الملابس البغدادية وتعددت ، فاشتهر منها الثياب(٨٨) بانواعها المختلفة ، مثل الثوب الدبيقي الشقيري ، والقيراطي الزهيري ، والرداء العدني ، والتنيسي ، والدمياطي(٨٩) ،والثياب

---

(٧٤) نفس المصدر ، ص٨٦ .
(٧٥) نفس المصدر ، ص٤١ .
(٧٦) نفس المصدر ، ص٤٢-٤٤ .
(٧٧) نفس المصدر ، ص٣٨ .
(٧٨) نفس المصدر ، ص٣٩ .
(٧٩) نسبة الى مدينة الطائف التي تشتهر بالزبيب .
(٨٠) الحكاية ، ص٤٨ .
(٨١) نسبة الى مدينة صريفون في سواد العراق ، قرب عكبرا واوانا ، على ضفة نهر دجيل ، وهي قرية كبيرة كانت تشتهر بالبساتين ـ معجم البلدان ، ٣/٣٨٤ .
(٨٢) الحكاية ، ص ٨٦ .
(٨٣) نفس المصدر ، ص٤٦ .

(٨٤) نفس المصدر ، ص١٠١-١٠٢ .
(٨٥) الاشنان : نبات لاورق له ، الا ان اغصانه دقيقة رخصة ، فيها ما يشبه العقب وهي على انواع مختلفة ، ابن البيطار: ١/٣٧-٣٨ .
(٨٦) الحكاية ، ص٤١-٤٢ .
(٨٧) نفس المصدر ، ص٤١ .
(٨٨) جمع ثوب ، وهو رداء واسع فضفاض عرض ردنيه يساوي على وجه التقريب طوله ، ويصنع من الحرير ، ترتديه النساء حين يردن مغادرة منازلهن ، دوزي ، المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ص٩٠-٩١ .
(٨٩) جاءت اسماء هذه الثياب ، نسبة الى مدن مختلفة ، مثل دبيق ، وعدن ، وتنيس ، ودمياط .

الديباج(٩٠) الموشاة بالذهب ، والعتابي(٩١) الدبيقي المعلم(٩٢). ومن انواع الملابس الاخرى، القميص(٩٣)، والدراعة(٩٤) ، ويبدو من البيت الآتي ، أن القميص كان يلبس فوق الدراعة :

حنيـــذ لبـــس اليـــوم
قميصـــا فـــوق دراعة (٩٥)

ومن الملابس المعروفة الطيلسان(٩٦) ، الذي كان لبســه يضفي شـيئا من الهيبة والوقار على صاحبه(٩٧) . وكان لا يستحسن خروج الشخص من داره بغير طيلسان ، ولا يفعل ذلك الا سكران فقد رشده(٩٨) . ومن الملابس الاخرى التي كانت تلبس في الشتاء غادة ، الجبة(٩٩) ، وقـد تكـون منقوشة في بعض الاحيان(١٠٠) ويلبس الازار(١٠١) من فوق الملابس ، وكان الشخص اذا دخل مجلسا القى ازاره من عليه(١٠٢) ولم تكن الازر مقصورة على الرجال فقط ، بل شاركت النساء في لبسها ، فكن يضعنها على رؤوسهن أو يلقينها على وجوههن، وكن يستعملن ازر القصب ذات اللون الابيض الرقيق أو الازرق(١٠٣) . ولبست السراويل(١٠٤) من قبل النساء ايضا فضلا عن الرجال ، وكن يلبسن ايضا اردية القصب المزينة الدقيقة الاعلام والطرز(١٠٥). وكانت الالبسة المصنوعة من القطن تلبس في الاوقات والمواسم الباردة ويبدو ذلك واضحا من البيت الآتي:

لبســت ذا القطن من البرد
ام انت كمثرى نهاوندي(١٠٦)

وكانت العمامة(١٠٧) لباس الراس المعروف للرجال في ذلك الوقت ، وهي قطعة من القماش تلف حول الراس ، وتكون في العادة بيضاء ، تصنع مـن اقمشة مختلفة ، وقد تكون من الوان اخرى ايضا . ولبست العمائم من قبل بعض النساء ، ولكن على نطاق ضيق .

ومن الطريف في هذا المجال ان نثبت نموذجا للابس احدى جواري ذلك العصر ، كما وصفها ابو القاسم في الحكاية حين قال ::(١٠٨)تجيء وعليها غلالة جرى الماء(١٠٩) ، وسراويل شق المرارة(١١٠)، وتكة ابريسم(١١١) خضراء سلقية من عمل الجواري، تلتف برداء من القصب « عودي دقيق الاعلام والطرز

---

(٩٠) الديباج : من الديج ، وهو النقش والتزيين ، وهو نوع من الثياب الخضر . ابن سيدة ، المخصص ، ٧٦/٤ .

(٩١) استعار هذا القماش اسمه من اسم احد شوارع بغداد ، دوزي ، المعجم المفصل ، ص ٩٣ .

(٩٢) الحكاية ، ص٣٥ .

(٩٣) يعمل القميص من الكتان او الشاش الموصلي ، او من الحرير (وبخاصة قمص النساء) ، وكانت القمصان غالبا ما تكون بيضاء ، اما قمصان الاغنيـاء فهي مزركشـة الحواشي والفتحات عادة ، ومطرزة بالحرير تطريزا يدويا . وللقميص كمان واسعان للغاية يهبطان الى المعصـم ، ويتدلى القميص الى منتصف الساقين . دوزي ، المعجم المفصل ، ص٣٠٠-٣٠١ .

(٩٤) الدراعة : رداء مفتوح من الامام ، اعلى القلب مزر بازرار وعرى ، المرجع السابق ، ص١٤٦ .

(٩٥) الحكاية ، ص٨ .

(٩٦) الطيلسان : نوع بسيط من الخمار الذي يطرح على الراس والكتفين ، او يلقى احيانا على الكتفين فقط ، وقد يصنع من الكتان الرقيق ، دوزي ، ص٢٢٩-٢٢٠ .

(٩٧) الحكاية ، ص٥ .

(٩٨) نفس المصدر ، ص١٠٩ .

(٩٩) الجبة : رداء يسبل على ثياب اخرى ، وللجبة ردنان غاية في القصر ، وجيب الشتاء مبطنة بالفراء ، وقد تكون من الصوف او من القطن او الخوخ . ولبست الجبب من قبل النساء ايضا ، لكن جبة النساء تختلف عن جبـة الرجال ، في انها ليست متسعة ، وبخاصة من الامام ، وانها عادة اقصر من جبة الرجال . وترتدي النساءالمترفات جبة من الخوخ ومن المخمل والحرير ، وهي مطرزة بالذهب او بالحرير الملون . وبصورة عامة تختلف نوعية الجبة وشكلها باختلاف المناطق التي تستعمل فيها . دوزي ، ص٩١-٩٨ .

(١٠٠) الحكايـة ، ص٩ .

(١٠١) استعمل لفظ (الازار) في العهود الاسلامية الاولى ليعني الثوب بصورة عامة ، مهما كان شكل هذا الثوب ، وقد عرف فيما بعد ، انه قطعة من النسيج تلتف بها النساء العربيات ، اذا اردن الخروج من الـدار ، دوزي ، ص٢١-٢٢ .

(١٠٢) الحكاية ، ص٨٥ .

(١٠٣) نفس المصدر ، ص٥٤ .

(١٠٤) السراويل : كلمة مأخوذة من الفارسية (شلوار) وكان مستعملا منذ العهود الاسلامية الاولى ، ولبست السراويل في معظم المناطق الاسلامية ، ويختلف شكلها ونوعيتهـا باختلاف المناطق ، وتكون سراويل النساء عادة طويلة قد تصل الى كعوب اقدامهن ، ويغلب اللون الازرق على هذه السراويل . دوزي ، ص١٦٨-١٧٤ .

(١٠٥) الحكاية ، ص ٥٣ .

(١٠٦) نفس المصدر ، ص٩ .

(١٠٧) نفس المصدر والمكان ، وانظر : دوزي ، ص٢٥٠-٢٥٤ .

(١٠٨) الحكاية ، ص٥٣ فما بعدها .

(١٠٩) الغلالة : ثوب مفرط في الشفوف والخفـة ، دوزي ، ص٢٦١ . ولعلها سميت هنا بـ (جرى الماء) لشفافيتها ورقتها المتناهية .

(١١٠) لقد مر شرح (السراويل) ، اما تعبير (شق المرارة) ، فارجح انه كناية عن شديد افتتان المرء بهذا النوع من اللباس وجماله .

(١١١) التكة : رباط السراويل ، وهي مشد مطرز النهايتين بالحرير الملون في اغلب الاحيان ، يستعملها الرجـال والنساء على حد سواء لربط التبان حول مدار السرة . دوزي ، ص٨٢-٨٥ .

عليه تزائين احسن والله من تحاسين الصين مطويا اربع طاقات ... مرصع بالزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر ...» ، وتمد على وجهها ازار قصب ابيض رقيق ، وهي من ورائه في ازار آخر ازرق اللون ، تشد اطرافه اليها ، فتبدو متنقبة ، وعندما تتوسط المجلس تحسر عن وجهها النقاب(١١٢) ، ثم تبدأ بالعزف والغناء .

الصناعات والحرف :

اذا تعددت الصناعات والحرف في مجتمع ما ، دل ذلك على تقدم المجتمع ، وتنوع حاجاته ، ورقيه في مدارج الحضارة . والمجتمع البغدادي في القرن الرابع الهجري ، بلغ شأوا عظيما من حيث تعدد الحرف وتنوعها ، وكثرة الصناعات ودقتها . ومن اصحاب الحرف المعروفة في بغداد : الوراقين ، والخطاطين ، والخياطين ، والخراطين ، والزرادين ، والمزوقين ، والطباخين ، والطحانين ، والمطربين ، ومن لا يحصى عددا من الحذّاق المعجزين(١١٣) . ونستطيع ان نتبين دقة بعض الصناعات وجمالها من اوصاف ابي القاسم لبعض معالم قصور الخاصة ، وللحاجيات المستعملة في المجتمع . فتعددت الاروقة والايوانات ، والابهاء المشرفة في تلك القصور التي غشيت سقوفها بالساج ، وزينت تعاريجها بالابنوس والعاج(١١٤) ، يدل على المستوى الرفيع الذي وصل اليه فن البناء والزخرفة في ذلك العصر . ومن جهة اخرى فأن صناعات معينة كصناعة الزجاج مثلا ، تبدو على درجة كبيرة من التطور ، فالكؤوس كانت « كقشرة الذرة البيضاء مجردة أو محفورة كأنها مخروطة من دارة القمر » ، والاقداح كأنها البلور خالية من الخدوش ، ولا تقل قناني الشراب جودة عن هذه الكؤوس(١١٥) . هذا اضافة الى الانواع العديدة من الزجاجيات ، مثل البلور المخروط ، والمحكم المجرود ، والمينا الاخضر ، والقطولي المذهب(١١٦) . ويوضح لنا النص الآتي مدى تقدم صناعة الادوات المنزلية ، فهذه : « منارة ملوكية كأنها مصنوعة من الذهب الابريز قطعة واحدة بغير كسر ولا وصل ولا لحام يزهر سراجها بخمس فتائل ...(١١٧) ، ويعمل هذا الشمعدان على الزيت النقي ، حيث لارائحة ولا دخان .

اما اسواق بغداد ، فكان منها ما يسمى حسب الحرف التي تمارس فيها ، مثل سوق النخاسين ، لبيع الجواري والعبيد ، وسوق الحلائين ، صانعي الحلويات ، وسوق الرفائين(١١٨) ، لرفو الملابس ، ومنها ما يسمى بأسماء اخرى ، مثل سوق الثلاثاء(١١٩) ، وسوق يحيى(١٢٠) ، وسوق العطش(١٢١) ، وسوق العروس(١٢٢) ، وكان سوق الدواب من اكثر هذه الاسواق مضايقة لمن يدخله ، لانه كان لايأمن على نفسه من لكمة أو صدمة ، أو لطمة تصيبه من شدة الزحام والاقبال على بيع وشراء الدواب(١٢٣) .

ولم تكن الحرف والاعمال مقتصرة على الرجال فقط ، بل ان نساء بغداديات كن يعملن في مهن عديدة ، وبخاصة الفنية منها ، مثل الغناء ، والعزف على الآلات الموسيقية ، وقد اشتهرت العوادات ، والزمارات ، والطبالات ، والرقصات(١٢٤) ومن العوادات المشهورات (مواهب) التي يقول فيها ابن الحجاج :

تمام الحج ان تقف المطايا
على دار تحل بها مواهب(١٢٥)

وكان في بغداد أساتذة لتعليم السباحة ، مثل الطوّا والزنابيري ، ويظهر ان هناك اشكالا عديدة للسباحة عرفت في بغداد ، من ذلك مثلا : « الشق والذرع والغمر والاستلقاء والتزاور والشكلبي

---

(١١٢) النقاب : قطعة من القماش تضعها المراة على وجهها اذا ارادت التبرقع . المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .
(١١٣) الحكاية ، ص ٢٤ .
(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٥-٣٦ .
(١١٥) نفس المصدر ، ص٤٦ .
(١١٦) نفس المصدر ، ص٤٥ .
(١١٧) نفس المصدر والمكان .
(١١٨) نفس المصدر ، ص٢٢ .
(١١٩) كانت سوقا لاهل كلواذا يقيمونها في اول ثلاثاء من كل شهر وذلك قبل ان يبني المنصور بغداد ، وهي تقع على الحد الجنوبي من سور بغداد الشرقية ـ د . مصطفى جواد و د . احمد سوسة ، دليل خارطة بغداد المفصل ، ص١٦ ، ١١٧-١١٨ .
(١٢٠) تقع في بغداد الشرقية ، سميت بهذا الاسم نسبة الى يحيى بن خالد البرمكي ، المرجع السابق ، ص١١٤ .
(١٢١) تقع في محلة العطش في الكرخ ، اسسها سعيد الخرسي في عهد المهدي ، وقد عرفت باسمه ثم اطلق عليها الاهلون اسم سوق العطش . المرجع السابق ، ص١٢٢ .
(١٢٢) لم اعثر على اسم هذه السوق في « دليل خارطة بغداد المفصل » ، ولاجل زيادة التفاصيل عن بقية اسواق بغداد ومحلاتها وخططها ينظر هذا المرجع في اماكن متفرقة .
(١٢٣) الحكاية ، ص ٦٥ .
(١٢٤) نفس المصدر ، ص٥٠ .
(١٢٥) نفس المصدر ، ٨٩ .

والطاووسي والعقربي والمقرفص والموزون والكامل والطويل والمقيد(١٢٦) .

وانتشر في بغداد العديد من الملاحين الذين كانوا يستخدمون قواربهم للنقل والنزهة . وكانت المراكب والسفن كثيرة العدد ، وتختلف باختلاف أشكالها وأعمالها ، وقد سمى لنا ابو القاسم نحو عشرين نوعا نذكر منها : السميريات(١٢٧) ، والزبازب(١٢٨)، والطيارات(١٢٩)، والشذاوات(١٣٠) والحراقات(١٣١)، والزلالات(١٣٢)، والخيطيات(١٣٣) والكار(١٣٤) ، والقرقور(١٣٥) .

الجواري والغناء :

لم يشتهر من جواري بغداد ، على الرغم من كثرة عددهن ، سوى المغنيات ، فقد أحصى مؤلف الحكاية مع جماعة من أصحابه عدد الجواري المغنيات في سنة (٣٦٠هـ/٩٧٠م) ، فبلغ اربعمئة وستين جارية مغنية في جانبي بغداد ، أما عدد الغلمان المغنين ، فبلغ خمسة وسبعين غلاما . وكان عدد الحرائر المغنيات أقل بكثير ، فلم يزد على العشر ، ويستثنى من هذه الاحصائية ، الجواري والحرائر اللائي كن يستترن ولا يتظاهرن بالغناء ، أو ان رقابة الاولياء عليهن كانت شديدة (١٣٦) . وفيما يأتي ثبت بأسماء بعض الجواري والغلمان الذين اشتهروا بالغناء ، ممن ورد اسمهم في الحكاية : زاد مهر جارية أبي علي بن جهور ، وهي بارعة الجمال ، طيبة الغناء ، عباراتها تشجي ، وحديثها يلهي(١٣٧) . وخرعوبة التي جمعت الذكاء مع الملاحة والفطنة والفصاحة(١٣٨) . وقهوة جارية ابن الرصافي ، وصلفة جارية ابي عابد الكرخي ، وبنت حسنون ، وخلوب جارية ابن أيوب القطان ، ودرة جارية أبي بكر الجراحي ، وعلية ، ودرة البصرية ، وفترة القصرية ، وخاطف ، وسندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وعلوة جارية ابن علوية ، ونهاية جارية السلمى ، وريحانة جارية ابن اليزيدي، وترف ، واقحوان جارية ابن الاعمى ، وروحة جارية ابن الرصافة ، ومنتظم وعلوة جاريتي بنت خاقان ، وحبابة جارية ابي تمام الرنني(١٣٩) ،وكانت هذه مغنية ونائحة ، تنوح في الكرخ ، وقد تهالك الناس عليها وعلى نوحها بالعراق ، اشتراها رجل خراساني بثلاثين الف درهم (١٤٠) . وصابة (١٤١) ، ودلال جارية ابن قهوة(١٤٢) .ومن المغنين : ابن بهلول ، كان اذا غنى « زلزل الدنيا بصوته الناعم ورنته الرخيمة واشاراته الخالية وحركته المدغدغة وطرفه البارع ودمائثه الحلوة »(١٤٣) ، وغلام الامراء، والموصلي(١٤٤) ، ومذكور ، وابن القصباني ، وعلوّن غلام ابن عرس(١٤٥) .

وجواري بغداد ، براي ابي القاسم ، جمعن الخلق والخلق ، واللطافة ، والنعومة ، واللين ، واذا اجتمعت في جارية صفات مثل : رواية النوادر ، والاجوبة الحاضرة ، وحدة المزاج ، وسرعة الحركة بغير طيش ولا افراط ، ملكت القلوب والاسماع ، وارتفع سعرها ، وزاد الطلب عليها . وكما اسلفنا فقد بيعت (حبابة) النائحة بثلاثين الف درهم ، بينما كان سعر الجارية الواحدة من الجواري اللائي لا يجدن الغناء، لا يزيد على خمسة آلاف درهم(١٤٦). والجواري البغداديات لا يعرفن الا الدنيا والدينار ، فقد كانت احداهن (زاد مهر) لا تتورع عن بيع

---

(١٢٦) نفس المصدر ، ص١٠٧ .
(١٢٧) السميريات : من انواع المراكب التي يقاتل فيها ، ثم استعملت للنقل والنزهة في دجلة د . ناجي معروف ، زوارق بغداد ، مجلة الاقلام ، ج٤ السنة الثالثة ، ص ١٥ .
(١٢٨) الزبازب : من مراكب القتال السريعة ، وقد استعملت للهو والعبور ، نفس المرجع ص١٢-١٣ .
(١٢٩) الطيارات : الطيار مركب استعمله الخلفاء العباسيون ووزراؤهم ببغداد ، ومما يدل على سعته ، ان صلاة الجمعة كانت تقام فيه اثناء الغرق . نفس المرجع ، ص١٦-١٧ .
(١٣٠) الشذاوات : مفردها شذاوة ، وهي سفن صغار مثل الزبازب ، نفس المرجع ، ص١٦ .
(١٣١) الحراقات : سفن يقذف منها النار على العدو ، ثم استعملت للعبور ، وكان الاغنياء يتنافسون في بنائها وتزيينها ، فاخرجوها على صور الحيوان والطير ، نفس المرجع ، ص١١ .
(١٣٢) الزلالات : كانت تتخذ للركوب والنقل ، وتذكر احيانا بالزلاجات ، نفس المرجع ، ص١٤ .
(١٣٣) الخيطيات : نوع من المراكب كانت تصنع بالبصرة في الابلة ، ويركب فيها الى الصين . نفس المرجع ، ص١٢ .
(١٣٤) الكار : يطلق على السفن المنحدرة المحملة بالطعام في موضع واحد . نفس المرجع ، ص٢٠ .
(١٣٥) القرقور : سفن كبيرة تبلغ سعتها ما بين ستة عشر وعشرين ذراعا . نفس المرجع ، ص٢٠ .
(١٣٦) الحكاية ، ص٨٧ .
(١٣٧) نفس المصدر ، ص٧١ .
(١٣٨) نفس المصدر ، ص٧٦ .
(١٣٩) نفس المصدر ، ص٧٨-٨٢ .
(١٤٠) نفس المصدر ، ص٨٣ .
(١٤١) نفس المصدر ، ص٨٤ .
(١٤٢) نفس المصدر ، ص٨٧ .
(١٤٣) نفس المصدر ، ٨٤ .
(١٤٤) نفس المصدر والمكان .
(١٤٥) نفس المصدر ، ص٨٥،٨٦ .
(١٤٦) نفس المصدر ، ص٣٥ .

جسدها بدينارين(١٤٧) ، وغالبا ما تضطر الجارية المغنية الى سلوك طرق معوجة بحكم عملها، وملاقاتها لكثير من الرجال(١٤٨) . وكان اصحاب الجواري ، يستعملون طريقة العزل في اتصالاتهم بهن ، مما يسبب لديهن نفورا وضجرا : « وكان اذا تعاطاها يعزل عنها فضجرت ليلة ورمت به عن نفسها ...»(١٤٩) . ويبدو من هذا أن اصحاب الجواري ، كانوا لا يحبذون انجاب الاطفال منهن ؛ لما يترتب على ذلك من حقوق جديدة للجارية أم الولد ، حيث لا يحق لصاحبها أن يبيعها مادام حيا ، فان مات تصبح حرة .

وكان اصحاب الجواري ، كثيرا ما يقيمون الحفلات الغنائية ، ومجالس اللهو ، التي تحييها جواريهم ، فيدعون اليها اصحابهم واصدقاءهم ، وقد تتدلل الجارية على سيدها ولا تقبل الغناء الا حسب مزاجها، وبخاصة ان كان لها نفوذ عليه(١٥٠). ولم يكن احياء مجالس اللهو مقصورا على الجواري فقط ، فللمغنين نصيب كبير في هذا المجال ، واذا ما فتن صاحب المجلس بغناء المغني ، بذل له المال بسخاء ، فيعطيه الملابس الفاخرة ، وما يكفيه من الذهب لمدة اسبوع ، ويقيم على شرفه الموائد العامرة بكل ما لذ وطاب من الطعام والشراب . ولم تكن الخمر تشرب في كل مجلس من مجالس الغناء ، لان هذا كان يتوقف على رب الدار وصاحب المجلس ، وان كان في الغالب يلبي طلب الحضور اذا اصروا على الشراب(١٥١) .

وتختلف زينة الجواري باختلاف البيئة الاجتماعية ، والمستوى المعاشي الذي يتواجدن فيه، فقد كانت زينة بعضهن بسيطة ، مثل الاساور في المعاصم ، والخلخال في الارجل ، بينما المشهورات منهن يتزين بحلى نفيسة تبلغ قيمتها الوف الدنانير ، مثل مسابح العنبر في العنق ، والحلى الذهبية على الصدور ، وهي مرصعة بالزبرجد الاخضر والياقوت الاحمر(١٥٢) . ونفقات هؤلاء الجواري بالذات كانت كبيرة ، ومتطلبات معيشتهن كثيرة ، فاحداهن مثلا (خرعوبة) كانت تنام على سرير من خشب العود كلفته الف درهم(١٥٣) . والاخرى (زادمهر) لم يكن يكفيها خمسة وثلاثين درهما في الشهر لمعيشتها ، فكانت تشكو الى صاحبها وتقول : « لو شربت بها فقاعا ماكفتني ولو شربت بها دبقا ماأغنتني ...»(١٥٤) وهددته ان لم يتداركها ويعطيها ما يكفيها من النفقة ، فانها سوف تسلك طريق الغناء ، وما يتبع هذا الطريق ... لتعيش الحياة الرغيدة التي تريد.

الطفيليون :

كان الطفيليون ظاهرة اجتماعية فريدة في المجتمع البغدادي ، فكانوا ينتهزون الفرص في مناسبات الاعراس ، والختان ، ويدخلون اليها من غير سابق دعوة . وهذا بطبيعة الحال اسهل من العمل ، أو الشراء ، أو التعامل مع البقال والقصاب. وصور المؤلف ، الطفيلي بصورة رائعة حين قال : « ... يشم القدور شم الذباب واذا ما استبان آثار عرس أو ختان او مطعما في اختلاب لم يروع دون الدخول ولم يرهب على الباب لكزة البواب ذاك اشهى من التكلف والغرم وغيظ البقال والقصاب يرى ركوب البريد في طلب الثريد ...»(١٥٥) . وكان هؤلاء الطفيليون لا يهمهم الا الاكل بغض النظر عن صاحبه أو مصدره ، فالواحد منهم « يغشى عليا لقدره ومعاوية لقدره »(١٥٦) ، ان رأى طعاما لزم جانبه لا يبغي عنه حولا :

مصمم ان راى خوانا(١٥٧)
شد على جانب الخوان(١٥٨)

وان سمع بوليمة سعى اليها :

فلو كان في يوم الوليمة في لظى
لجاءت به ريح الجرادق والقدر(١٥٩)

والطفيليون ثقلاء احيانا ، غير احدهم : انه اثقل من طفيلي يعربد على الندماء ، ويقترح انواع الغناء ، ويتشهى بعد اكل الغداء والعشاء الوان الصيف في الشتاء(١٦٠) .

بعض الامثال البغدادية :

من ملاحظتنا لبعض الامثال البغدادية التي جاءت في الحكاية ، نستطيع ان نكون فكرة عامة عن طبيعة المجتمع ومستواه في التفكير وقياس الامور ،

(١٤٧) نفس المصدر ، ص٧٢-٧٣ .
(١٤٨) نفس المصدر ، ص٧٤ .
(١٤٩) نفس المصدر ، ص٧٢ .
(١٥٠) نفس المصدر ، ص٧١ .
(١٥١) نفس المصدر ، ص٨٦ .
(١٥٢) نفس المصدر ، ص٥٣ .
(١٥٣) نفس المصدر ، ص٧٦ .
(١٥٤) نفس المصدر ، ص٧٣ .
(١٥٥) نفس المصدر ، ص١٣-١٤ .
(١٥٦) نفس المصدر ، ص١٠ .
(١٥٧) الخوان : الذي يؤكل عليه ، وجمعه اخونة ، لسان العرب - مادة : (خون) .
(١٥٨) الحكاية ، ص ١٠ .
(١٥٩) نفس المصدر ، ص١٥ .
(١٦٠) نفس المصدر ، ص١٢٠ .

فالمثل : « اذا مات الراعي تفرقت الغنم »(١٦١) ، يشير الى مجتمع يقدس الفرد ، ويعتبره الكل في الكل ، أما الشعب ، حسب هذه النظرة ، فلا اهمية له في تطور التاريخ وسير احداثه .

وتتجلى النظرة المصلحية بالمثلين التاليين : « من ليس يدك في قصعته لاتبل بصلعته »(١٦٢) . « مع الذئب يعيث ومع الراعي يستغيث »(١٦٣) .

وعن قلة الذوق الاجتماعي كان يضرب هذا المثل للشخص الذي لا ترغب زيارته ، فهو لايكتفي بالزيارة منفردا بل يستصحب معه ثانيا : « فأرة ما وسعها الثقب شدت في ذنبها مكنسة »(١٦٥) .

وعن الثقيل ايضا : « أبرح من ثقل الدين وامر من وجع العين »(١٦٥) . ومثل يضرب عن تابع صديق السوء الذي يجلب له المصائب : « فمن كان دليله البوم كان مأواه الخراب »(١٦٦) .

وهناك امثلة بغدادية اخرى ، تلمح الى الكثير من المعاني والمغازي الاجتماعية المستترة ، منها :

« قيل لوتد ما أسرع دخولك فقال لو علمتم ما خلفي من الدق لعذرتموني »(١٦٧) .

« اذا شبع الحايك سمّى ابنته ملكة »(١٦٨) .

« اذا ظهر الوالي اختبى رقيقهم »(١٦٨) .

ومن المؤسف ان هذه الامثال جميعا لم تستغل في هذه الحكاية الا في معان ومواضيع لا يمكننا ان نعتبرها ارشادية بأية حال ، يضاف الى ذلك ، ان هناك الكثير من الامثال التي أعرضنا عن ذكرها لخلاعتها وسخف معانيها(١٧٠) .

---

(١٦١) نفس المصدر ، ص٩٨ .
(١٦٢) نفس المصدر ، ص٨ . (١٦٤) نفس المصدر ، ص١٤ .
(١٦٣) نفس المصدر ، ص١١ .(١٦٥) نفس المصدر ، ص٦٩ .
(١٦٦) نفس المصدر ، ص١٥ .(١٦٨) نفس المصدر ، ص٧٤ .
(١٦٧) نفس المصدر ، ص٩٨ .(١٦٩) نفس المصدر ، ص٩٣ .
(١٧٠) انظر على سبيل المثال : ص ٨، ٩، ١٤، ٩٤-٩٥ من الحكاية.

المصادر والمراجع

* **الازدي : محمد بن احمد ؟؟؟؟**
١ ـ حكاية ابي القاسم البغدادي ، (مطبعة كرل ونتر في هيدلبرج ، ١٩٠٢) .

* **البكري : ابو عبدالله بن عبدالعزيز (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) .**
٢ ـ معجم ما استعجم ، تحقيق : مصطفى السقا ، (القاهرة ، ١٩٤٥-١٩٤٧) .

* **ابن البيطار : ابو محمد عبدالله بن احمد الاندلسي (ت٦٤٨هـ/١٢٤٨م) ـ**
٣ ـ الجامع لمفردات الادوية والاغذية ، (مصر ، ١٢٩٢هـ) .

* **الثعالبي : ابو منصور عبدالملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) .**
٤ ـ يتيمة الدهر ، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة (مصر ، ١٣٧٧) .

* **جواد : د . مصطفى جواد .**
٥ ـ حكاية ابي القاسم البغدادي هل هي لابي حيان التوحيدي ؟ مجلة الاستاذ ، مج١٢/١٩٦٣، ١٩٦٤ .

* **جواد وسوسة : د . مصطفى جواد و د . احمد سوسه .**
٦ ـ دليل خارطة بغداد المفصل ، مطبعة المجمع العلمي العراقي (بغداد ، ١٩٥٨) .

* **ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن بكر (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢) .**
٧ ـ وفيات الاعيان ، مطبعة السعادة (مصر ، ١٩٤٨) .

* **دوزي : رينهارت .**
٨ ـ المعجم المفصل باسماء الملابس عند العرب ، ترجمة : د . اكرم فاضل (بغداد ، ١٩٧١) .

* **الراوي : عبداللطيف عبدالرحمن .**
٩ ـ المجتمع العراقي في شعر القرن الرابع للهجرة ، مكتبة النهضة (بغداد ، ١٩٧١) .

* **الزركلي : خيرالدين ـ**
١٠ ـ الاعلام ، ط٣ (بيروت ، ١٩٦٩) .

* **سركيس : يوسف اليان .**
١١ ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة ، (مطبعة سركيس بمصر ، ١٩٢٨) .

* **السمعاني : ابو سعيد عبدالكريم بن محمد (ت ٥٦٢ هـ / ١١٦٧) .**
١٢ ـ الانساب ، نشر مرجليوث (لندن ، ١٩١٢) .

* **ابن سيدة : ابو الحسن علي بن اسماعيل (ت٤٥٨هـ/١٠٦٥)**
١٣ ـ المخصص ، المطبعة الاميرية ببولاق (القاهرة ، ١٣١٦-١٣٢٠م) .

* **فهد : بدري محمد .**
١٤ ـ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري (بغداد ، ١٩٦٧) .

* **الفيومي : احمد بن محمد بن علي (ت٧٧٠هـ/١٣٦٨م) .**
١٥ ـ كتاب المصباح المنير (القاهرة ، ١٩٠٩) .

* **مبارك : د . زكي مبارك .**
١٦ ـ النثر الفني في القرن الرابع ، مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة ، ١٩٣٤) .

* **معروف : د . ناجي معروف .**
١٧ ـ الثياب البغدادية في العصور العباسية ، مجلة الاقلام ، ج٥ السنة الخامسة .
١٨ ـ زوارق بغداد ، مجلة الاقلام ، ج٤ السنة الثالثة .

* **ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ/١٣١١م) .**
١٩ ـ لسان العرب (بيروت ، ١٩٥٦) .

* **ياقوت : شهاب الدين ابي عبدالله الحموي (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م) .**
٢٠ ـ معجم الادباء ، باعتناء مارجليوث (مصر ، ١٩٢٢-١٩٢٥) .
٢١ ـ معجم البلدان ، باعتناء وستنفيلد (ليبزك ، ١٨٧٠-١٨٧٣) وطبعة (بيروت ، ١٩٥٧) .